محمد نفّاع

ما الذي تغيّر بين الأمس واليوم؟

من النادر أن نجد قضيّةً في العالم اليوم مثلَ القضيّة الفلسطينيّة من حيث وضوحُها والقراراتُ التي اتُّخذتْ بصددها في الأمم المتحدة ومؤتمراتِ القمم العربيّة وغيرِها من المحافل والأطر، وكذلك من حيث العمقُ والبعدُ الإستراتيجيّ الاجتماعيّ والقوميّ الذي يُفترض أن يكون رافدًا فعّالاً لها ويسهّل حلّها. ومع ذلك، فالحلّ العادل لايزال بعيدَ المنال.

فالحركة الصهيونيّة التي تنظّمتْ في أواخر القرن التاسع عشر، وبمستوى رفيع من حيث التخطيطُ والممارسةُ ووضوحُ الهدف، بدأتْ ـ وبإمكانات ماليّة وإعلاميّة هائلة ـ بتنفيذ مخطّطها، على نحوٍ ما نجد في مذكرات موشي شاريت.[1] ثم تعاونتْ ثلاثُ قوى أساسيّة، وبتفاوت في الأدوار، على إحداث النكبة الفلسطينيّة ـ وهي الاستعمار والصهيونيّة والرجعيّة العربيّة. ولكنّ بريطانيا كانت أكثرَ حماسًا من الصهيونيّ جابوتنسكي لإقامة دولة يهوديّة في فلسطين، وذلك من أجل تأمين ممرّ قناة السويس وحماية المصالح البريطانيّة في الطريق إلى الهند، وكذلك من أجل أن يكون هذا الكيانُ عائقًا أمام الوحدة العربيّة، خاصةً بين شمال أفريقيا والجزء الشرقيّ من الوطن العربيّ.

في منتصف الأربعينيّات من القرن الماضي طَرَحَ الشيوعيُّون العرب واليهود في فلسطين شعارَ «الدولة الديمقراطيّة العلمانيّة في فلسطين.» لكنّ بريطانيا هي التي أَجَّجت الصراعَ، ليصبح من المستحيل تحقيقُ ذلك الشعار. ثم أتى وعدُ بلفور المعروف مع نهاية الحرب العالميّة الأولى، وبعد أن أَسْهم العربُ في الحرب ضدّ العثمانيّين إلى جانب البريطانيّين والفرنسيّين، وكُشف النقابُ عن معاهدة سايكس ـ بيكو المشؤومة.

أَردتُ من هذه التوطئة الدلالةَ على أنّ الأمور لم تتغيّر اليومَ إلى الأفضل، مع وجود القوى الثلاث المعادية أو العاجزة نفسها. فبعد كلِّ حربٍ شنَّتْها إسرائيل كانت دائماً تَخْرج رابحةً، ولا أقصد بذلك الانتصارَ العسكريّ. فقد تنازل العربُ عمليّاً عن قرار التقسيم، واكتفوا بإقامة دولة فلسطينيّة في الضفّة والقطاع. واليوم يبدو لهم شعارُ عودة اللاجئين الفلسطينيّين غيرَ ممكن، مع العلم أنّ هذا الحقّ مضمون دوليّاً ومقبول إنسانيّاً وأخلاقيّاً ومنطقيّاً. ومع أنّ الحركة الصهيونيّة فشلتْ فشلاً ذريعًا في جذب يهود العالم إلى إسرائيل، فقد جاءت بعضُ النظم العربيّة وطردت اليهودَ من أراضيها إلى إسرائيل مقابل رشواتٍ للمسؤولين؛ وآخرُ ما حَدَثَ في هذا المجال هو تهجيرُ الفلاشا من أثيوبيا بمساعدة جعفر النميري. واليوم أصبح اليهودُ الآتون من البلدان العربيّة يشكّلون أكثرَ من نصف السكّان في إسرائيل بفضل الأنظمة العربيّة، في حين أنّ أميركا أغلقتْ أبوابَها في وجه القادمين الجدد من روسيا والاتحاد السوفياتيّ وتمّ توجيهُهم إلى إسرائيل!

عن الدولة العلمانيّة الديموقراطيّة، والدولتين

أَعْتقد أنّ شعار «دولة ديموقراطيّة علمانيّة» اليوم يبدو مستحيلاً، أو على الأقلّ ليس أسهلَ من شعار «دولتيْن لشعبيْن.» ويعود ذلك إلى الجوهر العنصريّ للصهيونيّة وحكّامِ إسرائيل، بل إنّ الحديث يجري اليوم عن ترحيل العربِ الفلسطينيّين المواطنين داخل إسرائيل نفسها.

١ ـ يُشار مثلاً إلى تخطيط بن غوريون منذ ثلاثينيّات القرن الماضي لاقتطاع جنوب لبنان وإقامة صنيعةٍ للدولة اليهوديّة ـ وهو ما تمّ فعلاً بعد نصف قرن من ذلك الزمن، قبل أن ينهار. كما تعاون البارون روتشلد مع العثمانيّين والفرنسيّين والإنجليز والقوى الرجعيّة في لبنان، فاقتطعوا جزءًا لبنانيّاً من سهل الحولة وضمّوه إلى فلسطين ليصبح اليوم جزءًا من إسرائيل.

نحن لسنا من دعاة سفك الدم. ولكنْ، للأسف، فإنّ حكّام إسرائيل لا يتأثّرون إلا بخسائرهم البشريّة. هكذا كان الوضعُ في جنوب لبنان، وهكذا هو اليوم، إذ يَكْثر عددُ طالبي الهجرة من إسرائيل إلى الخارج بسبب انعدام الأمن الذي وُعِدوا به. فلا يوجد اليوم في العالم مكانٌ أكثرُ خطرًا على حياة الإنسان اليهوديّ من إسرائيل! وقد خَلَقَ حكّامُ إسرائيل، بسياستهم الإجراميّة الفاشيّة، ثأرًا لدى كل فلسطينيّ وكلّ عربيّ يَصْعُبُ التسامحُ معه على أرض الواقع. إنّ موقف منظمة التحرير الفلسطينيّة والسلطة الفلسطينيّة والرئيس عرفات تجاه قضيّة السلام العادل اليوم أفضلُ وأوضحُ ممّا كان عليه بالأمس، ومع ذلك نرى الكفاحَ الفلسطينيَّ اليوم في عُرْف حكّام إسرائيل وأمريكا ـ بل وأوروبا أيضًا ـ متّهمًا بالإرهاب. إذن، لقد تغيّر العالمُ إلى الأسوإ، في حين أنّ الشعب الفلسطينيّ تغيَّر إلى الأفضل خاصةً بعد استقلاليّة قراره.

أنا أنطلق في إجابتي من موقفي بأنّ الإمكانيّة الأكثر واقعيّةً، برغم صعوبتها، هي: إقامةُ الدولة الفلسطينيّة المستقلّة وعاصمتُها القدسُ العربيّة إلى جانب إسرائيل، وحقُّ اللاجئين الفلسطينيّين في العودة، وإزالةُ كافة المستوطنات الكولونياليّة من كلّ المناطق المحتلّة. أما عن افتراض إقامة دولة ديموقراطيّة علمانيّة فعندها ستنشأ ظروفٌ أكثرُ إنسانيّةً وأكثرُ ملاءمةً لحريّة السكن والتنقّل للعرب ولليهود في كلّ جزء من الدولة.

إنّ القضيّة الأساسيّة هي قضيّة العودة، لا قضيّة القدس، رغم أهميّة هذه الأخيرة. فإذا حُلّتْ قضيةُ الإنسان، قضيةُ الشعب، قضيةُ اللاجئين، يصبح من السهل الاتفاقُ حول القدس. والدولة الديموقراطيّة العلمانيّة تخفّف من حدّة الصراع الدينيّ بالتأكيد، وعندها تصبح حريّةُ العبادة والوصول الى الأماكن المقدّسة لكافّة المؤمنين ومن مختلف الديانات أمرًا طبيعيّاً.

قد تأتي ظروفٌ بعد إقامة الدولة الفلسطينيّة ويُصبح أكثرَ واقعيّةً أن تتطوّر الأمورُ إلى قيام دولة ديموقراطيّة علمانيّة ـ وهو الأمر الأرقى، ولكن الأبعد. فهذا الشعار بحاجة إلى جهد أكثر، وتضحياتٍ أكثر. فإذا كان كلُّ هذا الجهد لم يوصلْ إلى الأمر الأسهل، وهو الانسحابُ الإسرائيليّ من حدود ١٩٦٧، وإقامةُ الدولة الفلسطينيّة المستقلة، فكيف سيكفي للأمر الأكثر صعوبةً؟!

إن الواقع الحاليّ، واقعَ الاحتلال الاسرائيليّ وسياساته الإجراميّة، قد أَوْجد تناقضًا بين هذه السياسات من جهة، وضحايا هذه السياسات من جهة ثانية ـ أي العرب الفلسطينيّين أينما وجدوا، بمن فيهم الذين يعيشون داخل إسرائيل. وفي الوقت نفسه، هنالك واقع آخر يناضل فيه العربُ واليهودُ من أجل السلام العادل. وهنالك قوى سياسيّة، مثل الحزب الشيوعيّ اليهوديّ العربيّ، تتنظّم وتعمل بناءً على انتماء فكريّ أمميّ إنسانيّ سياسيّ وطبقيّ يعطي الدليلَ للبديل، ألاَ وهو التعايش اليهوديّ ـ العربيّ بالرغم من الانتماء القوميّ واختلاف الثقافات. وفي رأيي أنّ هذا سيكون النواةَ لدولة ديموقراطيّة علمانيّة، ولكنْ في مرحلة متقدّمة. إنّ تغيير هذا الواقع المأساويّ إلى البديل الأفضل سيَخْلق إنسانًا جديدًا، وأجيالاً جديدةً تَعْرف كيف تتعايش باعتزاز قوميّ، لا كسيّد وعبدٍ ومحتلٍّ وضحيّة.

عن العروبة الجديدة والجماهير

أمّا بخصوص «العروبة الجديدة» الأكثر تقدُّمًا وتحرُّرًا، فباعتقادي أنّ هذه هي القضيّة الجوهريّة، وهذه هي القوّة الكامنة والطاقة الهائلة الممنوعة الآن. ففي معركة العرب ضد الاستعمار والصهيونيّة والاحتلال، يغيب العنصرُ الحاسم: الشعب. ففي حين يدين كلُّ فرد في الأمة العربيّة الموقفَ الإجراميَّ للإمبرياليّة الأمريكيّة، وهذا هو الأمر الطبيعيّ، نجد أنّ النظم العربيّة بمعظمها مواليةٌ للسياسة الأمريكيّة. وقد تستطيع إسرائيل بقوّتها العسكريّة أن تتغلّب على العديد من الجيوش العربيّة، لا بسبب عدم كفاءة الجنديّ العربيّ، بل

قد تأتي ظروف بعد إقامة الدولة الفلسطينيّة ويصبح أكثر واقعيّة أن تتطوّر الأمور إلى قيام دولة ديموقراطيّة علمانيّة ـ وهو الأمر الأرقى ولكن الأبعد

بسبب تفوُّق إسرائيل العسكريّ. لكنّ إسرائيل لا تستطيع أن تواجه الشعوبَ، ولا تتحمَّل حروبَ الاستنزاف. لقد رأينا ذلك في جنوب لبنان، ونرى ذلك اليوم في الضفّة والقطاع: ففي مخيّم جنين استَعْملتْ إسرائيلُ الطائراتِ والدبّاباتِ والصواريخَ، ولكنّ هذا المخيم صَمَدَ وأوقع الخسائرَ الفادحةَ في صفوف قوات الاحتلال. وفي الجولان فشل الاحتلالُ في كسر شوكةِ وانتماءِ عشرين ألف سوريّ. وفي داخل إسرائيل فشلتْ كلُّ حكومات إسرائيل في التغلب على الأقليّة القوميّة العربيّة. إنّ أجهزة الأمن في إسرائيل تحدِّد خطَّ الخطر في الخسائر البشريّة بنسبة ٥٪، بمعنى أنّه إذا كانت خسائرُها تصل فقط إلى ٥٪ من خسائر «العدوّ» فهذا يُمكن تحمُّله؛ لكنّ خسائرها اليوم تصل إلى ٣٠ ـ ٤٠٪ من قِبل شعبٍ أعزل نسبياً يحارب بأسلحة بدائيّة. فإذا استمرّتْ هذه الحال، فماذا سيكون مصيرُ الاحتلال ومصيرُ كل سياساته؟

الانتفاضةُ الحاليّة وما رافقها من صمود واستبسال وتضحيات، والممارساتُ الإسرائيليّة وما رافقها من جرائم فاقت كلَّ تصوّر وكلَّ عُرف وكلَّ مقياس، كل هذا كان يجب أن يحرِّك العروبة من المحيط إلى الخليج. كان يَنْبغي تهديدُ المصالح الأمريكية، وقطعُ العلاقات الاقتصاديّة العربيّة مع إسرائيل على الأقلّ. كان يجب أن يَخْرج مؤتمرُ القمة في بيروت بقراراتِ إدانةٍ واضحةٍ لأمريكا. وكان يجب فسحُ المجال لتفجُّر طاقات الشعوب الجبّارة، لا توجيهُ السلاح إلى صدورهم. عن أيّ عروبة نتحدَّث اليوم، وبلجيكا «هزّت الرأسَ» لحكّام إسرائيل أكثرَ من النظم العربيّة المستهدفةِ شعوبُها وأرضُها ومواردُها؟! هنالك عدوٌّ شرسٌ وواضحٌ وصفيقٌ ومتعالٍ، هو أميركا وإسرائيل، يَضْرب الامتدادَ الفلسطينيَّ، ويَضْرب ويهدِّد الامتدادَ القوميَّ العربيّ، ويَضْرب ويهدِّد الامتدادَ الإسلاميَّ من بحر قزوين إلى شمال أفريقيا على الأقل. وكلُّ هذا يَدْخل في سياسة «النظام العالميّ الجديد.» واستغلّت الولاياتُ المتحدة أحداثَ ١١ أيلول استغلالاً بشعًا، حتى صارت تهمةُ الإرهاب تُلصق بكل مَنْ يقف حجرَ عثرة أمام المخطط الارهابيّ الإجراميّ الأميركيّ. فأين هو الرّد العربيّ على ذبح فلسطين، وذبح العراق؟

دولتان، مع حق العودة

الجماهير العربيّة هي الطاقة الكبرى. هنا يجب إحداثُ التغيير، لا الشعار. الشعب الفلسطينيّ طالبُ سلامٍ ومكافحٌ من أجل السلام، والعربُ يريدون السلام وإنْ كان منقوصًا وغيرَ عادل. لقد أرادت إسرائيل من السلطة الفلسطينيّة حمايةَ أمنها واحتلالها، فرفضتْ ورفض الشعبُ الفلسطينيّ، فجاءت الجرائمُ الإسرائيليّة. وأميركا تريد من النظم العربيّة والشعوب العربيّة حمايةَ مصالحها ومصالح إسرائيل. هنا يجب أن يكون الردّ. عندها سيصبح الحلُّ السلاميّ الشامل والعادل إلى حدّ كبير في متناول اليد. إنّ إحقاق حقّ الشعب الفلسطينيّ عبارةٌ عن عملية ثوريّة؛ فحلّ هذا الصراع سيَفْتح الأبوابَ على مصاريعها للكفّ عن المتاجرة بشعار القضيّة الفلسطينيّة على حساب لقمة الشعوب وحقِّها في العيش بكرامة.

هذه الانتفاضة الحاليّة كلفتْ إسرائيل أكثرَ من عشرة مليارات دولار. ضربتْ مرافقَ السياحة والفندقة، ووَضَعَ شارون خطتّه الاقتصاديّة المجرمة ضد العمّال والمستخدمين. والاقتصاد الإسرائيليّ، رغم قوته النسبيّة وتطوره التقنيّ، يعتمد إلى حدّ كبير على المساعدات الخارجيّة الأمريكيّة بشكل خاصّ وعلى نهب المياه والأراضي واليد العاملة الرخيصة العربيّة. رؤيتنا للمستقبل هي في استمرار الكفاح لتحقيق برنامج السلام العادل والشامل، بانسحاب إسرائيل من كل المناطق المحتلّة الفلسطينيّة والسوريّة واللبنانيّة، وبإزالة المستوطنات، وبإقامة الدولة العربيّة الفلسطينيّة المستقلة إلى جانب اسرائيل وعاصمتُها القدس الشرقيّة، وبالتمسك بحق اللاجئين الفلسطينيّين في العودة.

حيفا

محمد نفّاع

أمين عام الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ.